عندما أمرهم بترك الفساد والإسراف ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: 150-152]، فما كان منهم إلا أن ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [النمل: 49]، وما أجمل بصيرة الإمام الرازي حين شَّخص مشكلتهم فقال: «واعْلَمْ أنَّ ظاهِرَ هَذِهِ الآياتِ يَدُلُّ عَلى أنَّ الغالِبَ عَلى قَوْمٍ صالِحٍ هو اللَّذّاتُ الحِسِّيَّةُ، وهي طَلَبُ المَأْكُولِ والمَشْرُوبِ والمَساكِنِ الطَّيِّبَةِ الحَصِينَةِ»[1].

هل تُصدِّق أنَّ هذه القصة تكرَّرتْ في قرآننا الكريم في أكثر من ثلاثين موضعاً!!.. لماذا؟، لأنَّ العليم الخبير سبحانه يعلم ما سيتسرب إلى نفوس أمة محمد من تصورات تقديس الحضارة المادية، لذا جاءت أغلب القصص القرآني تعالج ظاهرة الارتماء في أحضان المادة، يقول الشيخ إبراهيم السكران -فك الله بالعزِّ قيده-: «قصص الأنبياء في القرآن الكريم لو أردنا أن نضع عنواناً مناسباً لصراعهم مع أقوامهم لصحَّ أن يكون العنوان: (الصراع بين المظاهر المادية والقيم الدينية)»[2].

ما أحوج الأجيال المسلمة اليوم إلى بثِّ العزة فيهم، فالعالم الغربي والأمريكي يحتاجك أيها الشاب أكثر ممَّا تحتاجه، واقتصادهم ومما لكهم قائمة على غفلتك واستهلاكك المفرط، ولهثك خلف سلعهم ومنتجاتهم الكمالية، بل غير اللازمة أصلاً طبعاً هذه المعاني لا تُعجب المنافقين ولا يستسيغونها، وعندئذ نقول: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:8].

(1) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للرازي (525/24).

(2) انظر: كتاب مآلات الخطاب المدني، الفصل الثالث «صراع الأنبياء مع الأقوام.. دراسة تحليلية».